كيف ولماذا يفشل الأطفال ؟

تاريخ النشر في جريدة أخبار الخليج – مملكة البحرين: 23 أكتوبر 2016

بقلم: د. زكريا خنجي

كلنا نود أن نرى تفوق أولادنا، كلنا نود أن نرى أولادنا وهم يصعدون منصة التتويج في نهاية المرحلة الدراسية لتسليم شهادة التفوق، كلنا نود أن نرى أولادنا في أفضل وظيفة في البلاد ويتسلمون أفضل راتب، كلنا نود أن نرى أبناءنا وقد أصبحوا نجوما في المجتمع الذي نعيش فيه، كلنا كذلك ولا يوجد استثناء.

فلا أحد يود أن يرى أولاده يفشلون، بأي نوع من الفشل، سواء في المدرسة أو في الحياة أو في المجتمع.

ولكن في حالات كثيرة يخيب الأبناء رغبة الآباء فيفشلون في المدرسة أو في الجامعة أو في أي مكان يوضعون فيه، فهو فاشل في نظر الجميع، وحتى في نظر نفسه، فهو يكرر دائما بينه وبين نفسه «أنا إنسان فاشل، سوف أفشل، سوف أخسر» ويستمر يحدث نفسه بذلك. عندئذ يشعر الوالدان بالإحباط واليأس من هذا الولد الذي فشل ولم يتخرج ولم يجد له بالتالي الوظيفة المناسبة، ويظل هذا الطفل في نظر الجميع فاشلا، ولكن لم يسأل أحد نفسه لماذا فشل هذا الطفل ؟

نحن دائما نبحث عن نجاح أولادنا، ولكن إن فشلوا لا نسأل عن أسباب الفشل، لماذا ؟

نسأل الطفل عندما يتسلم الشهادة عن النتيجة والعلامات التي حصل عليها، ونفرح كثيرا عند تفوقه، ولكننا لم – وبالأحرى – لا نسأله عندما تكون علاماته في المادة أقل من مستوى الطموح، لا نسأله لماذا حصل هذا، وإنما نوبخه مباشرة، وربما نصرخ في وجهه ونؤنبه وربما نشتمه.

يصف جون هولت في كتابه (كيف يتعلم الطفل ؟) الأطفال الفاشلين بأنهم هؤلاء الذين يستخدمون عقلهم بالطريق الخطأ، وهولت يعني أنه ليس هناك طفل ذكي وآخر غبي، وليس هناك طفل مشاكس وآخر مطيع؛ ولكن هناك طفل تمكن من التوصل إلى أفضل وسيلة له للتعلم، وآخر لم يتمكن من ذلك بسبب الكبار.

وإن أكثر مرحلة عمرية يستخدم فيها الطفل عقله جيدا هي المرحلة التي تسبق بدء حياته المدرسية، وهي المرحلة التي فيها يرى هولت أن الطفل يحصل فيها على أكبر قدر من المعرفة وأفضلها. لماذا ؟ لأن الطفل في سن صغيرة لديه أسلوب معين في استخدام عقله يناسب وضعه، ويستخدم عقله بشكل طبيعي وجيد؛ إلى أن يأتي الكبار ليحاولوا تعليم الطفل، فيفقد في تلك اللحظة هذا الميزة الكبيرة التي كانت لديه.

ويواصل ويقول: «وإن كنا نتصور أننا نرسل أطفالنا إلى المدرسة ليتعلموا كيف يفكرون، فإن هذه الفكرة خاطئة، فنحن نرسل أطفالنا إلى المدرسة ليتعلموا كيف يفكرون بطريقة سيئة، ويتخلون عن أنسب وسيلة طبيعية في التعليم، وأقواها، من أجل وسيلة أخرى لا تعلم الصغار، ولا يستخدمها حتى الكبار».

قال لي ذات يوم أحد الطلبة الذين كانوا يدرسون في مرحلة الدراسات العليا كنا ندرس المادة (الفلانية) وكان الكتاب المقرر للأسف يحوي كثيرا من النقاط، لكل موضوع العشرات من النقاط التي يجب تذكرها في الاختبار، هالني الكتاب، وعجزت أن أحفظ كل تلك النقاط بالطريقة التي يريدها الكتاب، لا أعرف كيف وُضع هذا الكتاب وما عقلية الكاتب، حقيقة كان الكتاب تعجيزا واختبارا للحفظ ليس أكثر ولم يكن اختبارا للمادة العلمية، وفي الحقيقة إن قدراتي في الحفظ ضعيفة جداً.

لذلك قمت بإعادة صياغة الكتاب بطريقتي الخاصة التي أستطيع من خلالها فهم المادة العلمية وتقديمها في الاختبار على أفضل وجه، ومن غير أي تغيير للحقائق العلمية الموجودة في الكتاب.

وفي ورقة الاختبار كتبتُ ما قمتُ أنا بصياغته، وكان في اعتقادي أننا في مرحلة الدراسات العليا ليس مطلوباً منا أن نحفظ وننقل كل ما في الكتاب إلى ورقة الاختبار، مثل طلبة المدارس أو مرحلة البكالوريوس، ولكني فوجئت عندما وجدت أن درجتي في الاختبار كانت أقل درجة في الفصل! وتساءلت بيني وبين نفسي، كيف ولماذا ؟

وبعد المحاضرة طلبت مقابلة الدكتور المحاضر وتناقشت معه في الموضوع، وقال لي ببساطة: «أنت لم تكتب الموجود في الكتاب، أنت أتيت بأشياء أخرى وكتبت أمورا تختلف في صياغتها وطريقة عرضها عما يوجد في الكتاب».

قلت: وهل ما كتبتُ يخرج عن الإطار العام للموضوع؟ هل ما كتبتُ خطأ ؟ هل ما كتبتُ لا يشمل كل تلك النقاط الموجودة في الكتاب ؟

فأخرج الدكتور الكتاب، فقال: انظر، هذا الموضوع يشمل 20 نقطة وأنت ذكرت منها 5 نقاط، وهذا الموضوع يحوي 10 نقاط وأنت ذكرت منها نقطتين .. وهكذا.

قلت: النقاط الخمس التي ذكرتها تشمل كل النقاط العشرين، إذ إن هناك نقاطا متقاربة وبعضها يشرح الآخر وبعضها مكرر، لذلك دمجتها كلها في تلك النقاط الخمس، ولكنها في مجملها لا تخرج عن النقاط العشرين. واستمر نقاشنا –الدكتور وأنا– على هذا المنوال، وفي الأخير قال لي: «كيف تريدني أن أعطيك درجة مثل زملائك وهم كتبوا بالضبط ما هو موجود في الكتاب ؟».

شعرت بالإحباط وخرجت.

ويواصل صديقي ويقول: ولكن بعد مرور عدة أيام استدعاني الدكتور – بعد أن راجع نفسه – وشرح لي الموضوع واعتذر وأعطاني درجة جيدة، وأفرحني بذلك، ولكن ما أريد أن أقوله إن التعليم النظامي –في كثير من الأحيان – يغلق عقول الأطفال والطلبة بصفة عامة، فنحن كمعلمين نريد من الطفل أن يقول ما نقول نحن، وأن يكتب ما نريد نحن لا ما يريد هو، لأننا نعتقد أننا أفضل من هؤلاء الأطفال، ونعتقد أنهم لا يملكون تلك القدرات التي تؤهلهم للإبداع والتفكير الإبداعي.

لذلك يفشل أطفالنا لأسباب كثيرة، منها الأنظمة التعليمية التي تفرض على الطفل أسلوبا معينا من التعليم، حيث يدخل الطفل المدرسة ليس لتنمية قدراته في التفكير والإبداع، وإنما لتلقي العلم عن طريق الحفظ

للاختبار فقط، فتنهار كل قدرات الطفل على التحصيل، لأننا ببساطة نريد الطفل أن ينجح في الاختبار وليس ليفكر ويبدع.

يقول جون هولت: إن الأطفال يفشلون لأنهم خائفون ويشعرون بالملل، وأيضا يشعرون بالبلبلة والاضطراب، إنهم يفشلون ليس لأنهم أقل ذكاء، وإنما لأن المُدرس لم يتمكن من نقل المعلومة بشكل صحيح إليهم، لأن المنهج الدراسي مكتوب بطريقة لا تسمح للطالب بالتفكير، ولأن الاختبارات التحصيلية ما وضعت إلا لتقيس مدى حفظ الطالب للمادة العلمية، فالمطلوب منه أن ينسخ ما هو موجود في الكتاب فقط.

ولكن الحقيقة تقول إنه لا يوجد من يشعر أنه مسؤول عن فشل الطفل، فالجميع لا يود أن يلقي هذا العبء على كاهله، وحتى أولياء الأمور كذلك، فلا الأم ولا الأب مستعد أن يتحمل مسؤولية ذلك.

ويتفق علماء النفس والتعليم على أن الكبار يجب أن يفهموا الظروف التي تساعد الطفل على التعليم، حيث إنهم في تلك اللحظة سوف يغيرون الظروف في المدرسة لتصبح مكانا لكل الأطفال ليكبروا فيها وينضجوا، ليس في الحجم فحسب، وإنما في العلم وفي الفضول وحب الاستطلاع وفي الثقة وفي الاستقلالية وفي الثراء المعرفي وفي الدأب وفي الصبر وفي الفاعلية وفي الفهم.

ومن أجل تصحيح الخطأ الحالي في الظروف التي يتعلم فيها الطفل علينا أولا أن نفهمه، ليس ذلك فحسب وإنما علينا قبل كل شيء أن نثق به، وأن نكسر الدائرة الجهنمية من الخوف وعدم الثقة.

نحن نرى الطفل إما كشيطان صغير، يجب أن نعلمه الطاعة والاستسلام، أو نراه كجهاز الحاسوب يمكن أن نضع في عقله أي برنامج لنحوله إلى عبقري، ولكن –كما تشير الدراسات– إن النظرتين سواء، وكل منهما سوف تؤدي إلى الإضرار بالطفل.

والآن، هل نستطيع أن نفكر ونجيب عن السؤال، لماذا يفشل أطفالنا ؟